

الفصل الثالث عشر

رماد الأربعاء^(١)

لقد خرج إليوت من وراء البحث حول القضايا السالفة بفكرة الصعوبة في الجمع بين مطالب الجسد وسمو الروح ، ، وبين القيم الحسية العارضة التي تشكل حياة الأفراد في أغلب الأحيان والقيم العليا الأخلاقية التي تهدف من ورأتها إلى الاتحاد بالجوهر الكلي والفناء المطلق في الذات الإلهية . ولصعوبة التعبير عن هذه القضايا نجد إليوت يتخذ الصورة الشعرية أساساً لمناهجه فهي التجسيم المحدد الأبعاد للأفكار الفلسفية المجردة . وغالباً ما تصاغ هذه الصور في قالب رمزي للدلالة على المستويات بل والاتجاهات المختلفة التي يرمى إليها الشاعر . ففي مستهل هذه القصيدة نلتقي بشخص يحاول أن يصعد درجات السلم ، وهذه الدرجات ترمز إلى مراحل الترقى والانسياب في العالم الروحاني ، وينتهي هذا السلم عند قمته بالحلب العذرى الإلهي ، إذ يقول :

« لأنني أحيا بلا أمل أن أدبر وجهي ثانية

لأنني أحيا بلا أمل

لأنني أحيا بلا أمل أن أدبر وجهي

أطمع في موهبة هذا الإنسان أو أفق ذلك الرجل

فلماذا أحاول ثانية بلوغ هذا المنى

(ولم يبسط الصقر المن جناحيه ؟)

ولم أحزن

لزوال السلطان عن مجد عادي ؟ »^(٢)

“Ash Wednesday”

(١)

يشير هذا الرماد إلى العنصر الأصل الذي نشأ منه الإنسان ، فهو من الرماد وإليه يعود .

“Because I do not hope to turn again

(٢)

Because I do not hope

لقد اقتبس إليوت فكرته التي ردها في الثلاث أبيات الأولى من الشاعر الإيطالي جيلو كافالكانتي^(١) وهو صديق دانتي الحميم . ذلك أن جيلو قد اشترك في المؤامرات التي حدثت في فلورنسا في أواخر القرن الثالث عشر ، وانتهى الأمر بنفيه إلى سارزانا^(٢) سنة ١٣٠٠ حيث أصيب بالحمى وتوفى بعد ذلك بقليل . وقبل مماته كتب إلى حبيبته يقول :

« إنني أحيأ بلا أمل أن أعود ثانية

إلى (تسكانيا) ، يا بلاتينا . . . »^(٣)

والفرق واضح بين الرجلين : فالشاعر الإيطالي يحاول أن يعود إلى حبيبته بعد أن حكم عليه بالنفي ففقد كل أمل في الحياة ، وصاحبنا الذي يحدثنا عنه إليوت قد فقد الأمل في قدرته على أن يدير وجهه عن العالم الحسى الصاخب ليبدأ في ارتقاء سلم الحياة الصوفية . فهو يحاول منذ بادئ ذي بدء أن يزدري المواهب الجسدية بأفاقها المحددة . إنه يرى وهو في أول الطريق أن هذا الارتقاء صعب وشاق ، ويشعر بأن صحته قد وهنت ، وقوته قد ضعفت ، إذ يقول : « ولم يسطر الصقر المسن جناحيه ؟ »

إنه يحس في قرارة نفسه بضعفه البشرى وبمحدود إمكانياته ، وبقصوره في مضمار الحياة الصوفية السامية ، إذ من العسير عليه اقتحامها ، ذلك أنه يحيا

Because I do not hope to turn
Desiring this man's gift and that man's scope
I no longer strive to strive towards such things
(Why should the aged eagle stretch its wings ?)
Why should I mourn
The vanished power of the usual reign ?
Ibid., "Ash Wednesday," p. 93.

Guido Cavalcanti

Sarzana

"Perch'io non spero di tornar già mai,
Ballatetta, in Toscana"

"I do not hope to turn again,
Ballatetta, to Tuscany."

(١)

(٢)

(٣)

وسط إطار إنسانى محاط بسياج من الزمان والمكان ، إذ يقول :

« لأننى أعلم أن الزمان هو الزمان دائماً
وأن المكان هو المكان دائماً ولا شىء غير ذلك
وأن ما هو واقعى إنما بالنسبة لزمان خاص
ولمكان معين

فلئننى أتبهج لأن الأمور كما هى عليها
وأفقد الأمل فى رؤية الوجه المبارك
كما أفقد الأمل فى سماع الصوت « (١) .

بعد هذه الاستحالة المادية فى تغير عنصر الزمن يتبهج صاحبنا لأن الأمور
تسير كما هى عليها ، وكما هو عهدده بها ، وبخاصة بعد أن فقد الأمل فى التحول
إلى الحياة الروحية وسماع الأصوات الملائكية . إنه هنا يعيش فى حاضره بعد أن
ضاع الأمل فى المستقبل المشرق ، فيصلى إلى الله ، ويطلب من الخالق جل
شأنه العون والمساعدة ، إذ يقول :

« وأضرع إلى المولى أن يتغمدنا برحمته
وأتوسل إليه أن ينسئى
هذه الأمور التى أسرفت فى مناقشتها
وأسرفت فى تفسيرها
لأننى أحيا بلا أمل أن أدير وجهى ثانية
فلتكفر هذه الكلمات

"Because I know that time is always time
And place is always and only place
And what is actual is actual only for one time
And only for one place
I rejoice that things are as they are and
I renounce the blessed face
And renounce the voice."
Ibid.

عما أقدمت عليه

ولتكن رادعة لى فلا أعود إليها ثانية

رب لا تثقل ديونتنا بأكثر مما نحتمل» (١) .

إنه يضرع إلى الخالق أن يتغمده برحمته وأن يغفر له ذلته التي صنعها بإرادته ، وأن يبعد عنه تلك الأمور التي أسرف في مناقشتها ولم يصل إلى نتيجة مرضية في حلها . لتكن هذه الكلمات حدًّا فاصلاً بين الشر والخير ، وليبدأ صفحة بيضاء ناصعة في تاريخ حياته فلا يعود إلى تلك المعاصي التي ارتكبها في شبابه . وبعد هذه التوبة الحقيقية يطلب من الله أن يرأف به يوم الدينونة .

• • •

ثم نراءت له سيدة ملتفة برداء أبيض وهي رمز مجسم لكل القوى الخيرة وتشبه إلى حد بعيد بياتريس (٢) رمز الحكمة والكمال ، وقد تغنى بحبها وأولع بطهرها وعفافها دانتى . ويقول إليوت :

« لقد عادت السيدة

التي تلبس الرداء الأبيض ، للتأمل وهي تلبس هذا الزى .

لتكفر العظام ببياضها عنا حتى النسيان .

فهى خالية من الحياة . وما دمت منسياً

"And pray to God to have mercy upon us
And I pray that I may forget
These matters that with myself I too much discuss

Too much explain

(١)

Because I do not hope to turn again

Let these words answer

For what is done, not to be done again

May the judgment not be too heavy upon us."

Ibid., p. 94.

Beatrice

(٢)

ومتناسباً ، فإني سأتناسي نفسي
حين أتفاني في هدفي الذي ركزت عليه .
وقد أوحى للريح نبوءة من الله ، للريح وحدها ،
فهى التى تستمع للنبوءات » . (١)

إن لحظات النسيان في التصوف ضرورية لفترات التأمل كما أنها ضرورية
أيضاً للتركيز على الأغراض السامية التى ينشدها الإنسان ، ولهذا فإن صاحبنا
يحاول أن يتناسى الماضى بأحداثه وفعاله ليتمكن من التركيز على حاضره الذى
يعيش فيه ومستقبله الذى ركز فيه كل آماله . إن العظام وهى رمز الموت قد
استعملها الشاعر هنا كناية عن إماتة الجسد ، واللون الأبيض الذى اكتسبته
هذه العظام دليل على طهرها ونقاوتها . وهى خالية من الحياة الدنيوية لأنها على
أهبة الاستعداد لملاقاة حياة الآخرة . أما الريح التى كانت تعيث فساداً فى
« الأرض الخراب » فقد تحولت هنا إلى نسمة هادئة من نسيمات الخلود ، ونفحة
من روح الخالق يجيى بها هذه العظام بعد موتها .

من هنا أخذت العظام معنى وهى تستقبل عبير الآخرة الذى يهب عليها
من جنة عدن ، فتقول :

« نهاية لا آخر لها

رحلة بلا نهاية

ختام كل ما ليست

The lady is withdrawn

In a white gown, to contemplation, in a white gown.

Let the whiteness of bones atone to forgetfulness.

There is no life in them. As I am forgotten

And would be forgotten, so I would forget

Thus devoted, concentrated in purpose. And God said

Prophecy to the wind, to the wind only for only

The wind will listen."

Ibid., p. 95.

له خاتمة

حديث بلا كلمة

وكلمة بلا حديث « (١) » .

فرحلة الآخرة لها بدايتها لكننا لا نعرف لها نهاية ، كما أنها في حد ذاتها خاتمة المطاف بعد تجوالنا في معترك الحياة . أما « الحديث بلا كلمة » فهو الحب العذرى الذى يعبر عن المحبة الإلهية دون حاجة إلى الإفصاح اللغوى ، و « الكلمة بلا حديث » هى الحقيقة المطلقة التى لا تقبل الحدال ، وهى التى وجدت منذ الأزل وستظل موجودة إلى الأبد دون أن يعترها أى تغير أو تبديل .

* * *

وبعد هذه الأفكار الفلسفية التى راودت صاحبنا عن الأبدية ، يدبر وجهه تجاه المنعطف المؤدى إلى « طريق الكمال » ويقول :

« عند المنعطف الأول للسلم الثانى

أدرت وجهى ورأيت أسفلا

نفس الشبح وقد التوى على حاجز السلم

تحت البخار فى الهواء الفاسد

وهو يصارع شيطان السلم

بوجهه المخادع الذى ينم عن الأمل واليأس « (٢) » .

“End of the endless
Journey to no end
Conclusion of all that
Is inconclusive
Speech without word and
Word of no speech.”

(١)

Ibid., p. 96.

“At the first turning of the second stair
I turned and saw below
The same shape twisted on the banister

(٢)

إن التعبير الذى أورده لنا إليوت فى البيت الثالث وهو « نفس الشبح » لايعنى به فرداً معيناً بل يشير فى بلاغة وصدق إلى غيره من بنى البشر الضالين الذين لم يتمكنوا من الصعود على سلم الكمال بل تعلقوا بحاجزه . أما الهواء الفاسد فهو الهواء المشبع بدخان المصانع وبالأبخرة المتصاعدة من القاطرات وغيرها من المخترعات الحديثة . إن هذا السلم هو الحد الفاصل بين حياة المجون واللهم والاسمتهار وحياة النضج والفضيلة . وبطبيعة الحال يقف الشيطان على باب السلم ليصارع من أرادوا اقتحامه ، والمجاز هنا واضح كل الوضوح .
ولما وصل إلى السلم الثالث وجد فتحة فى النافذة وقد انتفضت كالتينة الكبيرة ، ومن خلفها تزاوجت المراثيات التى عبر عنها بقوله :

« ورأيت وراء أزاهير العضة وخلف المراعى

صاحب الظهر العريض فى رذائه الأزرق المشوب بالخضرة

يسحر الربيع بناى عتيق .

الشعر المسترسل جميل ، والشعر الداكن قد أسدل على الفم .

السوسن والشعر الداكن .

التشتت الفكرى ، والموسيقى التى تنبعث من الناي . ونزوات العقل

على السلم الثالث « (١) .

إن هذه الصور الشعرية المتعددة تبين لنا العوائق الكثيرة التى تقف فى وجه

Under the vapour in the fetid air
Struggling with the devil of the stairs who wears
The deceitful face of hope and of despair.”

Ibid., p. 97.

“And beyond the hawthorn blossom and a pasture scene

(١)

The broadbacked figure drest in blue and green

Enchanted the maytime with an antique flute.

Blown hair is sweet, brown hair over the mouth blown,

Lilac and brown hair;

Distraction, music of the flute, stops and steps the mind over the third stair.”

Ibid.

صاحبنا لتكون حائلة دون صعوده إلى أعلى درجات السلم ، وهي تمثل النشاط المادى والطبيعى الذى يجذب الإنسان إليه فيعوقه عن التقدم خلقياً وروحياً. فالأزاهير والمرامى تعطينا لمحة عن جمال الطبيعة الحلاب ، أما صاحب الظهر العريض فهو راعى الأغنام بآلته الموسيقية ، والشعر الداكن المسترسل رمز الخصوبة والجمال البدنى . إن التينة المنتفخة ترمز إلى الآثام والمعاصى التى ارتكبها بنو البشر فى الماضى .

* * *

ولهذا تذكر صاحبنا على القور الماضى بكل ما فيه من نزوات شباوية ورغبات وميول قد انحرفت به فى تيار الرذيلة وأبعدته عن الطريق القويم ، فتراءى أمامه الدقائق والسويعات التى قضاهما بين النوم واليقظة ، وهو يتطلع الآن إلى :

« إشراق السنوات الحديدية ،

حينما تبعث الماضى خلال سحابة وضاعة من الدموع .

كما تعيد إلينا الأوزان الشعرية القديمة فى صياغة مستحدثة .

اللهم أنقذ هذا الزمن . وأنقذ

الرؤيا المسترة فى الحلم السامى

حين نجر وحيدة القرن المرصعة بالجوهر النعش الذهبى » (١) .

نعم ، لقد هلت عليه بثائر السنوات الحديدية مشرقة ضاحكة بعد أن ذوب الدمع سخياً حينما قدم إلى هذا المحراب خاضعاً خاشعاً معترفاً بكل ذنوبه . إن غمامة الماضى قد أضاعتها نورانية الحاضر . وبعد أن شعر بهذا التقدم

“The new years walk, restoring
Through a bright cloud of tears, the years, restoring
With a new verse the ancient rhyme. Redeem
The time. Redeem
The unread vision in the higher dream
While jewelled unicorns draw by the gilded hearse.”
Ibid., p. 98.

الملموس تضرع إلى المولى أن ينقذ البشرية وأن يفتح بصائر الناس لتتكشف أمامهم « الرؤيا المستترة » ليعرفوا أن الأجداد الأرضية التي ترمز إليها « النعوش الذهبية » لا قيمة لها .

• • •

وبعد هذا التفتت الذي أصاب الأنا القديمة بكل شهواتها ومعاصيها . حلت محلها النفس الواعية الجديدة ، وتسربل صاحبنا في ثوبه الروحي القشيب بعد أن نفر من العالم وازدرى كل ما فيه من محسوسات ، فتطلعت هذه النفس الجديدة إلى العلا طالبة المزيد وبخاصة بعد أن فتحت السرائر ، وانكشفت الخبايا . وظهرت المكنونات والحقائق بجوهرها وسرها . وبينما هو غارق في تأملاته إذ به يرى أمامه رؤية مجسمة لراهبة في ثوب ناصع البياض ، فيقترب منها ويرجوها في وداعة :

« ترى هل تصلى الأخت المحجبة

من أجل الذين يسرون في الظلام

ومن أجل الذين اختاروك وجحدوك

ومن أجل الذين تمزقوا على قرن (الحيوان) بين الموسم والموسم .

وبين الوقت والآخر ،

وبين الساعة والساعة ، والكلمة والكلمة ، والقوة والقوة .

ومن أجل الذين ينتظرون في الظلام ؟

ترى هل تصلى الأخت المحجبة

من أجل الأطفال بالقرب من الباب

أولئك الذين لا ينصرفون ولا يمكنهم الصلاة « (١) » .

"Will the veiled sister pray for

Those who walk in darkness, who chose thee and oppose thee

Those who are torn on the horn between season and season, time and time, etween

Hour and hour, word and word, power and power, those who wait

الذين يسبرون في الظلام هم الذين يسبرون في طريق الغواية بعيداً عن الخالق ، أما الذين تمزقوا فهم الشهداء الذين صارعوا الثيران في ساحات الاستشهاد فتمزقت أحشائهم في غير شفقة ولا رحمة بين الفينة والفينة . ومن العسير إذن على الأطفال الذين يشعون براءة وطهرأ أن يغادروا هذا المكان الذي استشهد فيه أجدادهم من قبل وقد تحول الآن إلى حديقة غناء يغدون فيها ويمرحون .

« « «

حينئذ يتعاقب المكان مع الزمان وتتشابك العناصر وتتحد في نسق كلي متجانس . بعد أن هدأت ثورة الجسد ، ومن ثم

« تمتعش الروح الضعيفة وتمرد

من أجل القضيبي الذهبي الذي أثنى عوده

ومن أجل رائحة البحر الضائعة

إنها تمتعش لتستعيد

صوت السماء ودوران العصفور» (١) .

هذه هي الروح التي تتصارع مع قوى الشر ومع التيه والكبرياء وحب الظهور المتأصل في نفس الإنسان ، لكن هذا القضيبي البراق الذي يكفى عن هذه الميول كلها قد أثنى عوده بعد أن جحدت النفس كل هذه الأمور . إنها تستعيد الماضي الملىء بحسه وانفعالاته وذكرياته عن رائحة البحر وخرير المياه وشقشقة العصافير .

In darkness ? Will the veiled sister pray
For children at the gate
Who will not go away and cannot pray."

[ibid., pp. 100 — 101.

"And the weak spirit quickens to rebel
For the bent golden-rod and the lost sea smell
Quickens to recover

[The cry of quail and the whirling plover."

: ibid., p. 102.

(١)

وبعد هذا الصراع المرير يزغت الروح من مكمنها ، وأخذت تحلق في الأفق الذي ارتسمته لنفسها حول الوحدة التأملية الخلابة التي كانت تنشدها عند أول الطريق . فما كان من المادة إلا أن انحسرت وتراجعت منذوية بعد أن تأرجحت زمناً طويلاً في قوة وفي عنقوان . أما النفس الواعية فقد اكتسبت شفافية لم تعهدها من قبل ، وقدرة على معرفة الماضي والحاضر . والإمام بأسرار الحياة والموت :

« فذلك هو زمن الصراع بين الموت والحياة
وهذا هو مكان الوحدة حيث تمر أحلام ثلاث
بين الصخور الزرقاء » (١) .

هذه الأحلام الثلاث عن الحياة والموت والخلود هي نهاية المطاف . ولعل الحلم الثالث والأخير هو ما كان يداعب مخيلة صاحبنا منذ أول الطريق . إنه ليس حلاً بالمعنى المتعارف عليه بل هو « رؤيا » تم عن بصيرة نفاذة وقوة روحية قد اكتسبها في خلوته بين الصخور الزرقاء حيث تتعانق الأرض مع السماء في هذا الأفق البعيد الذي تنعكس فيه صفحة السماء الزرقاء على أمواج البحر بمياهها الصافية .

ولعل هذه الرؤيا ناتجة عن الخضوع الكلي للإرادة الإلهية بعد إذلال الجسد . وإمارة شهوته . ودحض ميوله ورغباته . وما أعقب ذلك من تطلع إلى العلا : فتبدو « الحقيقة » سافرة وضاعة في تكاملها . تهب المعرفة لمن أراد أن ينهل من مشاربها ويضمها الزاخر الذي لا ينصب معينه . وتزيح الستار عن البصائر المعتمة المغلقة ، فتستجيب النفوس في ظمئها إلى تلك الينابيع الحية النابعة من أعماق السرائر الشفافة والروحانية الأصيلة .

"This is the time of tension between dying and birth
The place of solitude where three dreams cross
Between blue rocks."

'Ibid.